أثر العقل في إعادة تشكيل الوعي الإسلامي

قراءة تواصل بين وصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم، ورسالة الإمام الهادي عليه السلام في القضاء والقدر

أ. م. د.عبد علي حسن ناعور الجاسمي(*)

إنّ اهتمام الأمم بتراثها الفكري والحضاري، والتفات الشعوب في فترات يقظتها وسنوات انبعاثها إلى صفحات ماضيها ،لا ينبغي أن يتحول إلى عودة هذه الأمم إلى العيش مرة أخرى في إطار القيم والمفاهيم والعلاقات التي سادت العصور التي دُوِّن فيها هذا التراث. ولا ينبغي كذلك أن تتحول هذه الانبعاثات إلى إغراق عقل الأمة وفكرها في أشد صفحات تاريخها وظلامها، وأكثرها بعدا عن العقلانية والاستنارة، وعندما نكون جادين حقا في بناء كيان حضاري، يطوي صفحات التخلف ،ويصل حاضرنا ومستقبلنا بالعصور الزاهية في تاريخ حضارتنا الإسلامية، فلابد ـ إذن ـ من أن نتعاطف ونلتزم بأعمال مفكريه التي انتصرت للمنهج العلمي في التفكير، وأعلت من شأن العقل ومجدت من شأن اتّباعه ،ضد الخرافة والجبرية والاستبداد ،ومن ثم فإننا ـ ونحن نرفع شعارات بناء الدولة

(*) كلية الآداب/ جامعة الكوفة.

العصرية المستنيرة المتحررة ـ نستطيع أن نتخذ من استعمالنا للعقل مقياسا وحكما لمدى صدقنا في الإيمان بهذه الشعارات .

إن النظرة الفاحصة في آثار أئمة الهدى عليهم السلام التي نريد أحياءها الآن ـ في ظل انعدام الوعي وغياب التخطيط السائدين في هذا الحقل ـ تجعلنا ندرك أننا مازلنا بعيدين عن اتخاذ منهجهم ووصاياهم سلاحا في معركة انعتاقنا من قيود التسلط والتخلف والاستبداد. بل لا نغالي إذا قلنا: إن كثيرا مما يقدم لنا من تراث هو ثمرة جهد لا يراد من ورائه إلا العودة بهذه الأمة إلى قرون خلت، وقيم تخطاها التقدم الإنساني.

إن لأهل البيت عليهم السلام منهجا علميا خاصا لا يحيدون عنه، به يفسرون الأمور الدينية، وبه يقيسون المبادئ والآراء والمعتقدات والفلسفات، وهو العقل السليم الذي به يُستدَل على غيره ولا يُستدَل بغيره عليه. ومعنى هذا أن العقل هو المبدأ الأول لكل حجة ودليل، واليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم.

والعقل هو القوة المبدعة التي منحها الله تبارك وتعالى الى الإنسان وميزه به على الحيوان الأبكم، وشرّفه على بقية الموجودات، واستطاع به أن يستخدم الكائنات، ويكشف أسرارها، وبالعقل جعله خليفة في الأرض، ينظم الحياة عليها ويعمرها.

إن كل حكم سواء أكان مصدره الوحي أم الحس والتجربة دليله العقل، إذ لا وزن للسمع والبصر بلا عقل، ولا سبيل الى العلم بمصدر الوحي إلا العقل ودلالته. وبصورة أوضح نحن نأخذ بحكم الوحي والشرع بأمر من العقل، أما حكم العقل فنأخذه ونعمل به وإن لم ينص عليه الوحي والشرع، وخلاصة القول: إن أبعد الناس عن الدين من ظن أن الدين بعيد عن العقل، وإن ما يقصد اليه هو العقل السليم[1].

معنى العقل:

جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: " العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقلٌ" (٢).

ومن خلال تتبع الآيات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم يتحصل لنا أن العاقل في اصطلاح القرآن الكريم وعند الناس هو الذي يضع الشيء في مكانه ويملك إرادة قوية فيحبس نفسه عما يشين بها، ولا يستجيب لهواها إن يكن مخالفا للعقل وحكمه. " لأن أصل العقل الإمساك والاستمساك"(٣).

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ**﴾(٤).

وقال عز وجل: ﴿**يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ .... فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾(٦).

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن العاقل هو الذي ينقاد الى حكم العقل ويؤثره على هواه. لاسيما العقل المستنير بالمعرفة والحق والإيمان، وليس من الجهل والتعصب والأهواء الشخصية.

نقول : بم اقتدينا في إعادة ترتيب بيتنا المحطم ؟ ومن أي المشارب انتهلنا ماء حياتنا التي أوشكت على النهاية ؟ أهو الوعظ والإرشاد ومن ثم البكاء ،وبعدها نعود إلى ديدننا الأول ؟ تساؤلات كبيرة ومريرة تخرج الكلمات من أغراضها وتحيل مقاماتها إلى مضان غير المضان التي نريد ولكننا نعزي أنفسنا إزاء هذا الارتداد عن طريق العقل بأن فينا آثارا غزارا من منابع أصيلة تأخذ من نبع الهي لا ينقطع

ما دامت السماوات والأرض،ومن هذه المنابع ،سابع أئمة المسلمين الإمام موسى الكاظم عليه السلام، الذي رسم لنا نهجا لإصلاح أمورنا ،وبداية إصلاح أنفسنا لنعيد لعقيدتنا عزَّها المغيب ،في وصية عمادها العقل والتفكير ،يوصي بها تلميذه وتلميذ أبيه الصادق عليه السلام وهو هشام بن الحكم(٧).

ومن هذه المنابع أيضا الإمام علي الهادي عليه السلام الذي عاش عمرا قصيرا قياساً إلى العمر الطبيعي، فقد كان عمره يوم وفاته إحدى وأربعين سنةً، وكان مولده عليه السلام سنة ٢١٢هـ. وقد عاش حياته هذه في نشاط دائم متحرّك في الثقافة الإسلاميّة، فقد كان يعلّم الناس، ويعلّم العلماء منهم، حتى ذُكِر أن الذين رووا عنه علومه بلغوا ما يقارب مئة وخمسة وثمانين راوياً، والراوي عادةً يمثّل موقعاً ثقافياً متقدماً في ذلك الوقت(٨).

وقد تحرك الإمام عليه السلام في حياة الناس بحيث يراقب ويتصدى لكل الانحرافات التي تعرض لها الواقع الإسلامي، لأن مسؤولية الأنبياء والأولياء والعلماء في كل زمان ومكان، هي أن يدرسوا كل الخطوط التي تتحرك في الثقافة الإسلامية أو في الواقع الإسلامي، ليصلحوا الخطأ، وليقوّموا الانحراف بالأساليب التي وضعها الله تعالى في كتابه، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

وقد واجه الإمام الهادي عليه السلام كثيراً من المشاكل الفكرية التي كانت قد فرضت نفسها على الذهنية الإسلامية لتنحرف بها عن الصواب، فقد حدثت في زمنه مشكلة الذين يقولون بالجبر، وأنَّ الله تعالى أجبر عباده على أعمالهم، فليس للعباد اختيار في ما يطيعون أو يعصون، فالطاعة من الله والمعصية منه.

وكان هناك اتجاه التفويض الذي يقول: إن الله تعالى فوّض الأمر إلى خلقه، فهو خلقهم وانعزل عنهم، أو فوض الأمر إلى بعض خلقه، بمعنى أن الله تعالى خلق الناس وجعل الأمر للأنبياء مثلاً، فلا يتدخّل في شؤون النّاس، ولكن تبقى قدرة

الله وهيمنته وتدبيره للناس، بما لا يبعدهم عن رعايته وتدبيره وسلطته.

كان أصحاب هذين الاتجاهين بحسب الظاهر خارج المدينة، فأرسل الإمام الهادي عليه السلام رسالةً شارحاً لهم حقائق الأمور، ومبيِّناً لهم بالدليل من العقل والنقل بطلان الجبر والتفويض، ودعاهم إلى الاستقامة في خطِّ الله سبحانه وتعالى، كما واجه الغلاة الذين حاولوا أن يحركوا خرافاتهم في العامة، وخصوصاً أنَّ كثيراً من الذهنيّات التي تعيش في المجتمع هي ذهنيّات طيبة تقبل كل شيء، وهذا يحدث في كل زمان ومكان.

إن هذا البحث ليس شرحا لوصية الإمام الكاظم عليه السلام، ورسالة الإمام الهادي عليه السلام، بل هو إشارات ومقاربات فكرية طالما احتجنا فيها الى التذكير باستعمال العقل في تدبير أمور دنيانا وآخرتنا.

دنيانا التي هي مدار العمل المقترن بالسلوك الإسلامي الناصع المؤثر من خلال اتخاذ العقل السليم طريقا الى هذا العمل. وآخرتنا بوصفها الدار الحقيقية للإنسان، لأن الحياة فيها سرمدية. وشتان ما بين حياة لا تشكل غير عمر زائل لا محالة، وبين حياة أبدية. ومن طبيعة الإنسان أنه يبحث عن السعادة ولا يفكر بالشقاء.

لقد جاءت وصية الإمام الكاظم عليه السلام ثائرة منتفضة ضد الجهل، مشجعة على استعمال العقل في كل صغيرة وكبيرة مما يعتري النفس البشرية. في حين جاءت رسالة الإمام الهادي عليه السلام بمفاهيم انقضّت على أهل الفكر المنحرف من خلال التضمين العقلي تارة، ومن خلال النص الصريح المشير الى العقل بوضوح تام. وإن إطلالة خاطفة على الوصية والرسالة يُظهر بوضوح لا لبس فيه أن مصدرهما ينطلق من مصدر رسالي واحد، إذ انساحت الأدلة القرآنية فيهما انسياحا مقترنا بما ورد عن المعصومين جميعا (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وهذا دليل

ضمني على أن النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة إنما هو التمسك بهذا النهج الذي لا يحيد عن الحق أبدا.

قال الإمام الكاظم عليه السلام : "إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه ، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(٩).

يا هشام بن الحكم إنّ الله عزّ وجل أكمل للناس الحجج بالعقول ، وأفضى إليهم بالبيان ، ودلّهم على ربوبيته بالأدلاّء ، فقال: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١٠).

يا هشام : قد جعل الله عزّ وجل ذلك دليلاً على معرفته ، بأنّ لهم مدبّراً ، فقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١١).

وقال: (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)﴿١٢﴾.

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١٣).

يا هشام : ثمّ وعّظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة ، فقال : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(١٤).

وقال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١٥).

يا هشام : ثمّ خوَّف الذين لا يعقلون عذابه ، فقال عزّ وجل: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١٦).

يا هشام: ثمّ بيّن أنّ العقل مع العلم، فقال: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(١٧).

يا هشام : ثمّ ذمّ الذين لا يعقلون ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(١٨).

وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(١٩).

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢٠).

ثمّ ذم الكثرة ، فقال :(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّه)(٢١).

وقال : ﴿ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢٢).

يا هشام : ثمّ مدح القلّة ، فقال:﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٢٣).

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(٢٤).

وقال: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(٢٥).

يا هشام : ثمّ ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر ، وحلاّهم بأحسن الحلية ، فقال: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾(٢٦).

يا هشام : إنّ الله يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.(٢٧)يعني العقل.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.(٢٨)قال : الفهم والعقلَ"(٢٩).

فوصية الإمام الكاظم عليه السلام تبدأ بقوله : (يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه وقال : ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾.

قال صدرالمتألهين: "هذا الحديث مشتمل على بيان حقيقة العقل بالمعنى المذكور ـ أعني المرتبة الرابعة من العقول الأربعة المذكورة في علم النفس ــ، ومحتو على معظم صفاته وخواصه، ومتضمن لمعارف جليلة قرآنية، ومقاصد شريفة إلهية لم يوجد نظيرها في كثير من مجلدات العرفاء، ولم يعهد شبيهها في نتائج أنظار العلماء النظار ذوي دقائق الأفكار، إلا منقولا عن واحد من الأئمة الأطهار أو مسندا من طريقهم أو طريق العامة الى الرسول المختار صلى الله عليه وآله.

والحديث مشتمل على خطابات ذكر في كل منها بابا عظيما من العلم، بعضها في العلوم الإلهية، وبعضها في علم السماء والعالم، وبعضها في علم الفلكيات، وبعضها في علم الأكوان والمواليد، وبعضها في علم النفس، وبعضها في تهذيب الأخلاق وتطهير النفوس من الرذائل، وبعضها في السياسات المدنية، وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في علم الزهد وذم الدنيا، وبعضها في علم المعاد والرجوع الى الله، وبعضها في مذمة الكفرة والجهلة وسوء عاقبتهم وانقلاب نشأتهم الى نشأة البهائم، وأنهم صم بكم عمي لأنهم لا يعقلون، الى غير ذلك من العلوم والمعارف..."(٣٠).

وتنقل لنا سيرته المباركة بأنه يتخذ أسلوب الوصايا التي قد تتخذ موضوعات متنوعة، وقد تتخذ موضوعا واحدا متنوع الأبعاد وهذا ما نراه فيما روي من وصاياه ، ولعل أهمها وصيته هذه التي أدار فيها الحديث حول العقل من خلال النهج القرآني الذي أكد على دور العقل بوصفه حجة لله على عباده فيما هي مسألة الإيمان والكفر والضلال والهدى، والاستقامة والانحراف، وأثار الحديث عن السلبيات والإيجابيات في سلوك الإنسان من خلال تحريك العقل أو تجميده،

ودخل في التفاصيل العلمية المتصلة بالتفاصيل المتنوعة لأوضاع الإنسان الفردية والاجتماعية من خلال ذلك، فلم يعد العقل لديه مجرد قوة تتصل بالكليات العامة في حياته، بل تحولت الى قاعدة للوعي التفصيلي الذي يحدد للإنسان مواقع الحكمة في حياته التي يضع فيها الأشياء في مواضعها لتكون المسألة عنده أن يدرس كل الأمور التي تواجهه بالطريقة الواعية التي تحسب كل شيء بحسابات دقيقة تحيط بها من كل جهة، ثم لا يكتفي بالنتائج الفكرية المقتصرة على التصور، بل لا بد من أن يتحرك في خط النتائج العملية، والممارسة، وقد تحدث في هذا الاتجاه عن العلم في مصاحبته للعقل، وعن الكثرة من حيث ابتعادها في أحكامها وممارساتها عن العقل، فلا تُعدّ قيمة إيجابية، لأن الكم لا يحمل معنى للقيمة إذا لم يرتبط بالنوع، وعن القلة من حيث أن الغالب فيها الانطلاق من عمق الفكر وحركة الوعي. وانطلقت الوصية لتربط الخوف من الله والعمل للآخرة والتوازن في السلوك الاجتماعي، والاتزان في الكلام، بالعقل. مما يجعل من هذه الوصية وثيقة إسلامية للمنهج القرآني في تقييم العقل وفي مسؤولية تحريكه، وفي الأفق الواسع الذي يتحرك الإنسان من خلاله في عالم الفكر والعمل، وهو أمر يجعل المنهج الأخلاقي يتداخل مع المنهج العقلي.

وقد يكون هذا التأكيد على العقل، في هذه الوصية، وفي غيرها من الوصايا والأحاديث التي جاءت في حديث أئمة أهل البيت عليهم السلام للانطلاق بالخط الإسلامي في اتجاه اعتبار العقل أساسا للقاعدة الفكرية الإسلامية فيما يأخذ به المسلم أو فيما يدعه، ليملك من خلاله الميزان الذي يزن به الأمور فلا يقع في قبضة الخرافة، ولا يتحرك في أجواء الوهم والخيال. وهذا هو ما تحتاج اليه الحركة الإسلامية في منهجها الفكري وخطها العملي لتعرف كيف تدخل في عملية تنقية للتراث المنقول اليها من المصادر المتنوعة لتحاكم مفرداتها بمنطق العقل المنفتح على الوحي في آفاقه الواسعة، لأن البقاء على المنهج الانفعالي العاطفي السطحي قد

يدخلنا في كهوف الضلال من حيث نريد الانفتاح على الهدى، وقد يدفعه بنا للابتعاد عن خط الاستقامة في مناقشة قضايا العقيدة أو الشريعة التي قد يخضع فيها الجو العام للخوف من تحريك بعض الأفكار المطروحة في ذهنه العام، على أساس الخوف من غضبة العوام الذين قد يفقدون ثقتهم بالأشخاص الذين يثيرون أفكارا نقدية إزاء بعض الأمور المتصلة بالعاطفة العامة إزاء بعض قضايا التاريخ أو قضايا العقيدة في بعض تفاصيلها، أو قضايا الشريعة في بعض أحكامها.

إن التأكيد على العقل المنفتح على الوحي يفرض علينا إعادة النظر في كثير من أساليب الاستدلال لتجديدها أو لتجديد بعض الأفكار الناشئة منها، حتى نبقى في مستوى التحدي الكبير الذي يفرضه انفتاح الحركة الثقافية في العالم الإسلامي وغيره على قضايا الإسلام في العقيدة والشريعة والمنهج، وعلى خصوصيات المنهج الفكري الشيعي في الأمور التي يختص بها الشيعة، وهو أمر يفرض نشاطا غير اعتيادي من قبل المفكرين الاسلاميين في إدارة الحوار المفتوح حول هذه الأمور من الداخل، ومواجهة الأفكار المضادة من الخارج.

وقد نلاحظ في رسالة العقل هذا توجيها للمفسرين الإسلاميين للسير على منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، من إجل إخراج المفاهيم الإسلامية من القرآن الكريم بشكل متكامل. بحيث يكتشف الخط العام للموضوع، ثم يتحرك نحو الخطوط التفصيلية في نطاق النماذج الحية المتحركة في الواقع، مما يوحي بتحرك الفكرة في ساحة التطبيق، كما نرى فيها تأكيدا على الانفتاح على كثير من الأمور الفرعية المتعلقة بالموضوع.

هذا هو المنهج الذي يعمل على توسيع الأفق الفكري للإنسان المسلم بحيث يعمل على الجمع بين المضمون الداخلي للفكرة، وبين الإيحاء الخارجي لحركتها في الواقع، فقد استنطق الإمام عليه السلام كل آية ورد فيها الحديث عمن يعقلون وعمن لايعقلون في النتائج الإيجابية للفريق الأول، وفي النتائج السلبية للفريق الثاني،

ليدفع بالحديث إلى آفاق الوعي الإنساني ليؤكد على أن الإنسان العاقل هو الإنسان الذي ينفتح على كل مواقع الاختبار المميز للفكرة الصالحة، وللقول الأحسن باعتبار أن ذلك هو مظهر الهداية الالهية في حركة العقل في الداخل. ولينطلق، بعد ذلك، ليؤكد موقع العقل بوصفه حجة على الإنسان في قناعاته، ومنطلقاللانفتاح على الأدلة المفتوحة على كل ما في كتاب الكون من آيات منثورة في آفاق السماء والأرض ليكون هو الأساس لاستخلاص النتائج في معرفة الله تبارك وتعالى في مواقع وحدانيته وعظمته التي لا تقف عند حد، وليطوف الإنسان في المجالات التي يؤكد فيها العقل له كيف يركز خطواته على أرض صلبة ثابتة تتيح له السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة[٣١].

وتلتقي هذه الوصية وتتصل حلقاتها مع رسالة الإمام الهادي عليه السلام التي تبدأ بقوله: (من علي بن محمد، سلام عليكم وعلى من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته، فإنه ورد علي كتابكم وفهمت ما ذكرتم من اختلافكم في دينكم وخوضكم في القدر ومقالة من يقول منكم بالجبر ومن يقول بالتفويض وتفرقكم في ذلك وتقاطعكم وما ظهر من العداوة بينكم، ثم سألتموني عنه وبيانه لكم وفهمت ذلك كله. اعلموا رحمكم الله انا نظرنا في الآثار وكثرة ما جاءت به الأخبار فوجدناها عند جميع من ينتحل الاسلام ممن يعقل عن الله جل وعز لا تخلو من معنيين: إما حق فيتبع وإما باطل فيجتنب...)[٣٢].

إن من يطلع على رسالة الإمام الهادي عليه السلام سوف يدرك سهولة الجواب على الرغم من صعوبة السؤال، إذ إنّ الإمام جمع لهم في هذا الكتاب الآيات القرآنية وكلام أهل بيت العصمة (صلوات الله وسلامه عليهم)، ومزجه ببعض الأمثلة والشواهد لنفي الجبر والتفويض وإثبات الأمر بين الأمرين. وأضاف بعض الشبهات وأجاب عنها.

يقول عليه السلام: " فأمَّا الجبر الذي يلزم من دان به الخطأ، فهو قولُ من زعم أنَّ

الله جلَّ وعزَّ أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، ومن قال بهذا القول، فقد ظلم الله في حكمه وكذّبه وردَّ عليه قوله: ﴿**ولا يظلمُ ربُّك أحداً**﴾(٣٣).

وقوله: ﴿**ذلك بما قدّمَتْ يداكَ وأنَّ الله ليس بظلاّمٍ للعبيد**﴾(٣٤).

وقوله: ﴿**إنَّ الله لا يظلمُ النّاسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفُسَهُم يظلمون**﴾(٣٥).

مع آيات كثيرة في ذكر هذا. فمن زعم أنَّه مجبرٌ على المعاصي، فقد أحال بذنبه على الله وقد ظلمه في عقوبته، ومن ظلم اللهَ فقد كذّب كتابه، ومن كذّب كتابه فقد لزم الكفر بإجماع الأمة.. وأما التفويض الذي أبطله الصادق عليه السلام وخطّأ مَنْ دان به وتقلّده فهو قول القائل: إنَّ الله جلَّ ذكره فوّض إلى العباد اختياراً أمره ونهيه وأهملهم، وفي هذا كلام دقيق لمن يذهب إلى تحريره ودقته، وإلى هذا ذهبت الأئمة المهتدية من عترة الرسول صلى الله عليه وآله، فإنَّهم قالوا: لو فوّض إليهم على جهة الإهمال، لكان لازماً له رضى ما اختاروه واستوجبوا منه الثواب، ولم يكن عليهم في ما جنوه العقاب إذا كان الإهمال واقعاً.. فمن زعم أنَّ الله تعالى فوّض أمره ونهيه إلى عباده، فقد أثبت عليه العجز وأوجب عليه قبول كل ما عملوا من خير أو شر، وأبطل أمر الله ونهيه ووعده ووعيده، لعلّة ما زعم أن الله فّضها إليه، لأن المفوض إليه يعمل بمشيئته، فإن شاء الكفر أو الإيمان كان غير مردود عليه ولا محظور، فمن دان بالتفويض على هذا المعنى، فقد أبطل جميع ما ذكرنا من وعده ووعيده وأمره ونهيه، وهو من أهل هذه الآية: ﴿**أفتؤمنونَ ببعض الكتاب وتكفُرونَ ببعضٍ فما جزاءُ مَن يفعلُ ذلك منكم إلاَّ خِزيٌ في الحياة الدنيا ويومَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أشدِّ العذاب وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون**﴾(٣٦) تعالى عما يدين به أهل التفويض علوّاً كبيراً.

لكن نقول: إنَّ الله جلَّ وعزَّ خلق الخلق بقدرته وملّكهم استطاعة تعبّدهم بها، فأمرهم ونهاهم بما أراد، فقبل منهم اتباع أمره ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته، وذمَّ من عصاه، وعاقبه عليها، ولله الخِيَرَة في الأمر والنهي،

يختار ما يريد ويأمر به وينهى عما يكره ويعاقب عليه بالاستطاعة التي ملّكها عباده لاتباع أمره واجتناب معاصيه، لأنه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجة بالإعذار والإنذار، واليه الصفوة يصطفي من عباده من يشاء لتبليغ رسالته واحتجاجه على عباده، اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وبعثه برسالاته إلى خلقه"(٣٧).

ومما يؤكد التزام الإمام الهادي عليه السلام المنهج العقلي في توجيه شؤون الأمة أننا نراه ينطلق الى أفكار متعددةيؤكّد فيها قيمة العقل، ويضرب لذلك مثلا هو معجزات الأنبياء، لماذا جاء موسى بمعجزة العصا وباليد البيضاء، ولماذا جاء عيسى بمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولماذا جاء محمد صلى الله عليه وآله بمعجزة القرآن في عالم البلاغة.

يروي (الكليني) في (الكافي) عن الحسين بن محمد عن أحمد بن محمد السيّاري عن أبي يعقوب البغدادي، قال: " قال ابن السكيت ـ وكان من علماء اللغة العربية ـ لأبي الحسن علي الهادي عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر، وبعث عيسى بآلة الطب، وبعث محمداً صلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء عليهم السلام بالكلام والخطب؟ فقال أبو الحسن: إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم، وإنَّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات(٣٨). واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيي لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله وأثبت به الحجة عليهم، وإنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، وأظنه قال الشعر، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل قولهم وأثبت به الحجة عليهم.

قال: فقال ابن السكِّيت: "تالله ما رأيت مثلك قطّ، فما الحجّة على الخلق اليوم؟ قال: فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله

فيكذّبه، قال: فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب"[٣٩].

ونلحظ هنا، أنَّ الإمام يريد أن يؤكد ما أكده الإسلام في القرآن الكريم وفي بعض الأحاديث القدسيّة، من أن العقل هو حجة الله على الإنسان، وأنَّ الله يأمر العقل بما يأمر به وينهى العقل بما ينهى عنه، وأنه يثيب الإنسان ويعاقبه على قدر عقله.

فعندما تحدّث ابن السكيت عما هو الحجّة اليوم، فإنَّ الإمام الهادي عليه السلام لم يشر إلى الحجة بصراحة، ولكنه قال له: إنَّ هناك الصادقين الذين يصدقون على الله في ما ينطلقون به من الرسالة وفي ما يجلسون به من الموقع، وفي ما يتحركون به مما يأمرون الناس أو ينهونهم عنه، وعليك أن تستنطق عقلك، ثم دعه يدرس مواقف الذين يتحركون في الساحة، فالعقل عندما يملك العناصر الأساسية التي يمكن له أن يتحرك فيها بإشراقة الفكر وصفائه ونقائه، يمكن عندئذ أن يكتشف الحجة، وهو الصادق الذي يعرف من خلال صدقه أنه يصدق عن الله، ويعرف الكاذب الذي يمكن أن يكتشف كذبه عندما يكذب على الله، ليصدّق الصادق فيتبعه ويسير معه.

وهذا هو المقياس الذي لا بد لنا من أن نقيس به الأشياء، فالعقل قادنا إلى أن نؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى أن نؤمن بالقرآن وبالإسلام، والعقل يقودنا الآن إلى أن يكون تصديقنا لمن نصدقه منطلقاً من الحجة التي يتمتع بها هذا الإنسان الذي يريد أن يكون حجة علينا في ذلك، وأن لا يكون انتماؤنا لأي إنسان من خلال قرابة أو صداقة أو حالة سطحية، بل أن نستنطق عقلنا في كل من يتحرك في الساحة، لنعرف من الصادق على الله تبارك وتعالى لنصدقه، ومن الكاذب عليه لنكذّبه، وإذا استنطقنا عقولنا وتجردنا عن كل أهوائنا وكل ما ورثناه وألفناه، فسينطلق العقل ليعرفنا الحجة في كل زمان ومكان.

من خلال هذا المعطيات نستنتج :

١ - العقل هو الحجة من الله على الناس . وهذا هو الشعار الذي ينبغي للناس كافةً أن يأخذوا به ، ولا سيما المسلمون، ليعالجوا مشاكلهم الفكرية والعلمية والعملية والسياسية من خلال العقل ، فلا يحركوا حياتهم في خطّ غرائزهم وعواطفهم، بل أن يتحركوا في الحياة من خلال عقولهم.

٢- نفهم من خلال هذا الحديث قاعدة عامة في الحياة ، وهي أنك عندما تريد أن تؤكد مرجعية شخص الفكرية أو الفقهية أو أي نوع من أنواع المرجعيات في الحياة ، فإن عليك أن تدرسه، لأن قضية أن ترتبط بأي إنسان باسم الله، تحتاج إلى أن تدرس كل عناصر شخصيته ، حتى تطمئن بأن هذا الشخص يصدق على الله عندما يقول قولا ينسبه إليه ولا يكذب عليه .

ومن هنا، فإنَّ الإمام الهادي عليه السلام يريد أن يشير الى أن الله تعالى عندما يحاسبك غداً على اتّباعك شخصاً أو رفضه، فإنه يحاسبك من خلال عقلك، هل اتبعته من خلال دراسة أم أنك اتبعته من خلال هوى نفسك.

وهذا هو الدرس الذي يجب أن نأخذه من الإمام الهادي عليه السلام، لأن مجتمعاتنا ضائعة في مسألة القيادة، وأن الذهنية العشائرية تارة والعصبية تارة أخرى، هي التي تحدد موقفنا من الأشخاص سلباً أو إيجاباً ، وقد ورد في كلمة أمير المؤمنين في وصيته لابن عباس : "... **فَلا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ وَإِحْيَاءُ حَقٍّ**... " (٤٠). فعليك أن لا تعيش الانفعال والعاطفة في كل علاقاتك الدينية والسياسية والاجتماعية والأمنية؛ لأنّها تذهب كأي شيء طارئ .

ولما كانت غاية الإسلام أن تأخذ به البشرية جمعاء، بوصفه منهج حياة لها، ولما كانت نصوص الشريعة، سواء تلك التي وردت في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة، متناهية معينة، والوقائع أو الحوادث الإنسانية المختلفة غير متناهية،

وبما أنه لم يرد في الشريعة نص أو حكم في كل حادثة أو لكل واقعة، ولا يُتصور ذلك أصلا، وما دامت الحوادث تترى، والزمان يتجدد، والناس تتغير؛ وبما أن تقدم المجتمع الإنساني أو تطوره يوجد حاجات جديدة على الدوام، ويخلق وقائع جديدة تفرز مشاكل مستجدة لم ترد فيها نصوص خاصة في الكتاب أوالسنة؛ وهذه الوقائع أوالأحداث تمس حياة الناس من حيث علاقاتهم بعضهم ببعض من جميع النواحي؛ علمنا أن النظر العقلي أمر لا غنى عنه، وأمر واجب حتى يكون لكل حادثة أو واقعة أو مشكلة، حكم معين ينسجم مع أصول النص وغاياته. وكل ما حكم به العقل، حكم به الشرع. فالعقل (رسول) في الباطن، والشرع (عقل) في الظاهر. فإذا أدرك العقل أن العدل حسن والظلم قبيح، حكم الشرع بأن العدل محبوب لله، والظلم مكروه له[٤١].

ويلتقي هذا المنهج مع الإمام الكاظم عليه السلام حين اختار طريق الاستدلال بالقرآن الكريم بوصفه نظرية كونية شاملة تصلح لكل الأزمان والعصور، وتمتد صلاحيتها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ففي قوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[٤٢] اختيار ممنهج يفضي الى اتباع القول الحسن ، وهذا ليس اختيارا نمطيا أو استذكاريا ، لان استماع القول شيء وإتباعه شيء آخر ، ولا يظن أحد أن اتباع القول في هذا السياق غير إيحاء للتطبيق، أي : اتخاذ السلوك والعمل طريقا إلى إثبات النية الصادقة ومشاركة الآخرين في ذلك ،لان البناء الإنساني لا يقوم على جهد فرد أو أفراد معدودين.

والإنسان في مرحلة كفاحه الطويل في سبيل البقاء لا يمكن أن نفصل فيه الجانب الأخلاقي عن الجانب الاجتماعي ، ولا عن الجانب الروحي ، فهو ـ في الوقت الذي كان يبني فيه نفسه ـ كان يبني في الوقت نفسه ذاته و مُثُلَه العقلية ، وان كان لا يعي من الأمر شيئا . فمنذ طور النشأة نمت فيه خصال اجتماعية جوهرية ،أي

:خصال لابد منها لتأمين حد أدنى من التضامن والتكامل والتواد والتحاب والتعاطف ،ومن ثم أدرك انه ليس من العقل في شيء أن يعتدي على جزء من أجزاء تلك الجماعة، فهو يبدأ منذ عرف الإنسان إن له حاجة يريدها . فقد روى الجاحظ " أن رجلا من الحكماء سئل : متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت فلما رأى إنكار الناس لكلامه قال : أما أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت ، وطلبت الثدي حين احتجت ، وسكتُّ حين أعطيت ، يقول : هذه مقادير حاجتي ومن عرف مقادير حاجاته إذا مُنعها ، وإذا أُعطيها ، فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثر من ذلك العقل"(٤٣).

إن من يطلع على وصية الإمام الكاظم عليه السلام سوف يدرك الاختزال الكبير للتجربة الإنسانية وتطلعاتها الإيمانية الصافية من خلال هذا الأسلوب الذي يذهب بالعقل الى الانطلاق نحو الصلاح وطلب الآخرة والفوز بنعيمها من خلال استعمال العقل في كل ما يهم الإنسان من عمل يقوده الى أحسن العواقب.

ومن يطلع على رسالة الإمام الهادي عليه السلام سوف يدرك سهولة الجواب على الرغم من صعوبة السؤال، إذ ان الامام جمع لهم في هذه الرسالة الآيات القرآنية وكلام أهل بيت العصمة (صلوات الله وسلامه عليهم)، ومزجه ببعض الامثلة والشواهد لنفي الجبر والتفويض واثبات الامر بين الامرين. وأضاف بعض الشبهات وأجاب عنها. كل ذلك ليصحح مسيرة الأمة التي شابها تربص المنحرفين وذوي الأهواء والبدع الذين يحاولون أن يفسروا القرآن بغير معناه الظاهري، وكانوا يتأولونه بغير معناه من دون أساس للتأويل، لأن التأويل في عمق اللغة العربية، فعندما تستعمل لفظاً في معنى مجازي، أو عندما تستعير لفظاً موضوعاً لمعنى آخر، أو عندما تستعمل الكناية، فهذه كلها قد تقترب من معنى التأويل، ولكنه تأويل ينطلق من قواعد اللغة. أما أن تفسر الكلمة على هواك، بحيث لا تجد المعنى المراد فيها، فإن ذلك يعني الفوضى، لأن بإمكان أي إنسان أن يفسر أي كلام بما يحب من

دون أن يرتكز على قاعدة، وهذا ما حدث في زمن الإمام الهادي عليه السلام من بعض الذين ينتسبون إلى التشيع زوراً ويحاولون أن يتقربوا إلى الناس في هذا الفكر المنحرف باسم أهل البيت عليهم السلام.

ومن نعم العقل الفعلي أو العقل بالفعل كما يسميه أهل المنطق ، هو أن تصير النظريات مخزونة عن قوة الفعل بتكرار الاكتساب ، بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد ، لكنه لا يشاهدها بالفعل .والى هذا ذهب الإمام الكاظم عليه السلام في ذكره للآيات الكريمة إذ قال : "يا هشام إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ، ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾(٤٤).

ثم يقول الإمام عليه السلام : "يا هشام قد جعل الله ذلك دليلا على معرفته بأن لهم مدبرا ، فقال : ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾(٤٥).

وقال : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(٤٦).

فالإمام عليه السلام يورد النص الأول في هذه النطاق ليعقل الإنسان ما حوله من المعالم التي يراها كل يوم ، وحركة هذه المفردات الثابتة والمتحركة ، ومن بعد هذا وذاك يدخل إلى الاستدلال عن طريق الإنسان نفسه ليكون هذا الإنسان ذا عقل مستفاد تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه وذلك عن طريق الحسيات أو الدليل الحسي، فضلا عن التجارب الخزينة عند الإنسان نفسه من

التفكير واستعمال العقل.

وعلى وفق هذا التدرج في النصيحة والاستدلال بالقرآن الكريم يستمر الإمام الكاظم عليه السلام حتى يصل إلى الغرض الأكبر من الوصية ، وهو السلوك وأثره في بناء المجتمع المثالي ، قال : "يا هشام إن الله تعالى يقول في كتابه : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، يعني : عقل ، وقال : ولقد آتينا لقمان الحكمة ، قال : الفهم والعقل " . وعند الرجوع إلى معجمات اللغة وجدت أن العرب تقول : (رجل عاقل: وهو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل: العاقل: الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، والعقل : التثبت في الأمور ، والعقل : القلب ،والقلب : العقل ، وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، أي : يحبسه " (٤٧).

إلى آخر هذه المضامين التي وردت عن العقل . ولكننا نشير إلى المضامين الرئيسة التي تلت ذكر الآيات الكريمة ، إذ بدأ الإمام الكاظم عليه السلام بإعطاء الخلاصات التي استمدها من النصوص الشريفة ليركز على الأغراض والمضامين الرئيسة التي أرادها من خلال هذه الوصية ، ومنها : التواضع . أدلة الحق . ذم إتباع الهوى . حسن الخلق . ذم الكذب . كف الأذى . في سلسلة خلقية اجتماعية تنأى عن استعمال الخوارق وذكر المعجزات واتباع الأوهام والأباطيل ،بل جاءت هذه المفردات علمية تطبيقية تدعو إلى اتخاذ العقل وسيلة إلى الرقي بالإعمال إلى حسن تطبيقها ، وهو عليه السلام من بيت حري أن يوصي لأنهم العاملون حقا ، ولأن دعوة الفضيلة والخلق والضمير تنبت من الأرض ،ويمكن لعقل الإنسان أو قلبه أن ينادي بها ويحيا عليها ، لأن الأمين الصادق الشجاع البعيد عن الترف والجشع ، والطمع بسائر الدنايا هي صفات الرجل المؤمن من دون أن يحاول إثباتها من خلال إقامة المعالم والطقوس التي لها محل غير هذا المحل، ومن دون أن يلوح لصاحبها بالثواب في حياة أخرى أو يخوفه من عذاب النار.

إن المدنية الحديثة قد سدت على الناس أبصارهم ومسامعهم وصورت لهم أن معنى الإنسانية ليس إلا العمل على إيجاد حياة أفضل والانتفاع من اللذة أكثر وكأن ليس للإنسان هدف غير ذلك ، فالناس يفكرون في كيفية الحصول على مسكن أحسن ومركب أوسع ، ومقام أرفع ، ويجدّون في أن يعرفوا أي السبل تدر عليهم ثروة أكثر كي يتمكنوا من ممارسة شهواتهم بصورة أوسع ، في حين أن الإسلام يعدّ التفكير واستعمال العقل والتدبر في عوالم الخلق أعظم العبادات.

إن المطالبة باتخاذ السلوك محجة للتطبيق ليس بالأمر الهين وهذا لا يتجه إلى العقل وحده ، وإلا لهان الأمر ، ولعله من الأصح أن نقول انه يتجه إلى العقل بطريق غير مباشر ومعقد جدا ، ،وعلى الإرادة مباشرة ومواجهة في محاولة للتأثير فيها ، وهنا تكمن مسالة السلوك أو التطبيق ،فليس الأمر هنا أمر إقناع ، فنحن مقتنعون جميعا أن الدخان وتعاطي المسكرات والإفراط في الشهوات تتلف الصحة، ومع ذلك فإنّ أكثرنا يتنكر لهذه التعاليم، ليس الأمر هنا تحصيل للمعرفة، بل هو تطبيق هذه المعرفة ، والفرق بين التحصيل والتطبيق كالفرق بين السماء والأرض . إن هذه العادات التي نريد اقتلاعها من نفوسنا لم ترسخ فينا بالعقل وحده وإلا لأمكن انتزاعها بالعقل كأي نظرية علمية خاطئة يمكن التخلي عنها بسهولة عندما يثبت خطؤها ، فما اقتنصناه بحكم العقل أيضا يمكن انتزاعه ، والصعوبة إنما تبدأ عندما يتدخل في الأمر عامل آخر غير عامل العقل، كالعادة وظروف النشأة والبيئة والمصلحة وغيرها . ولكننا نستطيع على الرغم من هذه القيود أن نعد العدة لرابط حقيقي ، والرابط الحقيقي هو ما يربط الإنسان بأخيه الإنسان ، فليس لأحد أن يحيد عنه إذا كان حريصا على الالتزام بالقانون الخلقي قانون الإرادة الطيبة المتحققة من خلال العقل ومن ثم فليس لأحد أن يتطلب من أعماله أن تكون صادرة عن نداء العقل . فإذا كان المرء يتخذ العقل رائدا وباعثا له في سلوكه عند أدائه فسوف يشعر بشعور غامر

بالسعادة الكاملة التي لا يشعر بها النفعيون والأنانيون وأصحاب المصالح والمآرب والأغراض . إن المضامين الرفيعة التي أفاض بها الإمام موسى الكاظم عليه السلام على تلميذه هشام بن الحكم طريق سالكة للإصلاح، ولإعادة ترتيب بيتنا المحطم كما تقدم في صدر هذا الكلام. والإصلاح عند أكثر المفكرين يبدو لأول وهلة أن منطلقه الأسرة، إذا صلحت صلح المجتمع كله وإذا فسدت فسد. وهذا يعبر عن جزء من الحقيقة، لأن الأسرة لا يمكن تنظيمها قبل تقويم النفس، وعلى هذا المضمون ركز الإمام عليه السلام بإصرار وإعادة وتذكير.

إن وصيته موجهة إلى النفس أولا، إلى مكافحة هواها ، وتقويم النفس لايكون إلا بتطهير القلب ، أي بتطهير النفس من الشهوات الفاسدة الدنيئة ، والقلب لا يطهر إذا لم يكن مخلصا في تفكيره ، وهو لا يخلص في التفكير لأنه قد غلب عليه الهوى ، فتشوهت الحقائق ، ولم يعد ممكنا البحث في طبائع الأشياء بحثا موضوعيا منزها عن الأغراض والأهواء ،فإذا سعى الناس إلى المعارف المنزهة عن الغرض والهوى اخلصوا في تفكيرهم ، وإذا أخلصوا في تفكيرهم تطهرت قلوبهم من الازدواجية ، وإذا تطهرت قلوبهم من الازدواجية صلحت نفوسهم وإذا صلحت نفوسهم صلحت الأسرة ، سلسلة مترابطة من الحلقات يأخذ بعضها بأعناق بعض . أما المواعظ التي تحث على الفضيلة فهي لا تجدي شيئا ، كما لايجدي العقاب الرادع ، فللإصلاح أبوابه، فإذا كان عزمنا إعادة الريادة إلى الأمة الإسلامية من خلال رموزها الحقيقية فحري بنا أن نأتي البيوت من أبوابها لا من ظهورها.

إنّ الإيمان ليس مجرد فكرة تنطلق من العقل لينفتح لها القلب، ولكنها فكرة تتعمّق في الذات، بأن يكون الإيمان عقلاً من عقلك، وقلباً من قلبك، وإحساساً من إحساسك، وكلمة تنطق بها بلسانك، ولستَ مؤمناً إذا اكتفيت بذلك، ولكن أن يكون هناك دليل على هذا الإيمان، ودليل الإيمان أن تكون

عيناك مؤمنتين، فلا تنظران إلا لما أحل الله، ولا تتحركان إلا من خلال المعرفة التي تطوف في آفاق الله، وأن تكون أذناك مؤمنتين لا تسمعان إلا ما أحل الله، ولا تتخذان طاقة السمع إلا من أجل معرفة يمكن لها أن تغني عقلك، عندما يتحول السمع إلى قناة تطل على عقلك، وأن يكون لسانك مؤمناً فلا ينطق إلا بالحق، وأن تكون يداك مؤمنتين فلا تتحركان إلا بما أحل الله، وأن تكون رجلاك مؤمنتين فلا تنطلقان إلا في الدروب التي يرضاها الله، وأن يكون كل جسدك مؤمناً في ما تأكل بأن يكون حلالاً، وفيما تشرب بأن يكون حلالاً، وفي ما تستلذّ من شهواتك بأن تكون من حلال، وفي ما تلعب وتلهو بأن يكون لهوك حلالاً ولعبك حلالاً.

وتستمر المسألة لتمتد في مواقفك، بأن تكون مواقفك عندما تؤيد وعندما ترفض صورة لإيمانك، فلا تقف أي موقف تأييد إلا إذا كان الإيمان ينسجم مع هذا الموقف، ولا تقف موقف رفض إلا إذا كان الإيمان يتطلّب منك ذلك. أن تكون مؤمن العقل والقلب والإحساس والشعور والحركة، لأنّ ذلك هو الدليل على إيمانك، وهذا ما تحدّث به الإمام الصادق عليه السلام في ما رُوي عنه " أنهم قالوا له: إنَّ هناك من يقول إننا نرجو الجنة ونخاف من النار، قال: كذبوا، ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه"(٤٨).

فالذين يتجهون إلى ما يدخلهم النار كيف يقولون إننا نخاف النار، والذين يبتعدون عما يؤدي بهم إلى الجنة كيف يقولون إننا نرجو الجنة، إنّ هذه الكلمة تؤكد على أن يكون الإيمان كل كيانك، وأن لا يكون مجرد خطرات في الفكر ونبضات في القلب وبعض ما تلم به من هنا وهناك.

نتيجة التنكر للعقل:

لقد نتج عن غياب العقل هذا أن أصبح الإسلام خلطا عجيبا من العقيدة

المشوشة، والأساطير الموروثة، والتفسيرات الخاطئة، ثم استحال هذا الخلط على تراخي الزمن وانقطاع الصلة واستعجام اللسان الى مخدر يمنع من النظر، ويصد عن الفكر، ويُذهل أهله عن حركة الوجود وسير الفُلك، فعرف كثير من أهل الإسلام اليوم بجهالة كالموت، وتوكل كالتواكل، وهم يتوهمون أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا، وأن المسلم ليس من همه المادة، وأن ما هم فيه من ظلام الفكر وخَدَر الشعور إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة. وإن من محن الإسلام ـ حين ضعف أهله وزال سلطانه ـ أن امتزجت فيه كل نحلة، وسرت اليه كل علة، وتراءت فيه كل حالة، فكل امرئ واجد فيه ما يلائم استعداده ويناسب فهمه، وإذا كان هذا حاصلا بين العرب وهم أهل الدين وأصحاب اللغة واللسان فما ظننا بغيرهم ممن بلغتهم الدعوة مترجمة عن طريق الفرس أو عن طريق الترك بالتجارة أو بالفتح[٤٩].

وهكذا انتهى الأمر بالمسلمين في حالة غياب العقل والوعي الى أن ينقسموا طوائف بعضها ضد بعض، وتراجع دور العقل، فشكل ذلك هروبا من مسؤولياتهم في حل مشاكلهم بأنفسهم على هدي كتاب الله الذي لا يهدي إلا بالعقل.

وهكذا، لو درسنا تاريخ أهل البيت عليهم السلام، لرأينا الامتداد في عموم الواقع الإسلامي موجوداً في حياة كل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام، فإنهم عاشوا حياتهم مع الناس وهم المعصومون من قِبَل الله، والمعصومون في أنفسهم، فلم يُنْقَل في تاريخ أحد منهم أي خطأ في قول أو فعل أو عمل، ولذلك كانت عصمتهم تتحرك من خلال الصورة التي أشرقت في حياتهم وفي حياة الناس كلِّهم. وهذا هو الذي يجعلنا نلتزمهم التزام الروح والعقل والفكر، وأن نعيش في خطِّ إمامتهم، فلا يبقى لنا مجرد الحب والولاء، بل نتبعهم في كل ما يقولون وما يفعلون، لأن الله تعالى أعطاهم ملكات قدسية استطاعوا من خلالها أن يكتشفوا كثيرا مما يخفى على الناس، واستطاعوا الحصول على الكرامات التي ينقلها المؤرخون في حياتهم، مما لا

يحدث إلا لأولياء الله تعالى.

وينقل المؤرخون أنَّ المتوكل عندما حبس الإمام الهادي عليه السلام ودفعه إلى علي بن كركر، قال عليه السلام: "أنا أكرمُ على الله من ناقة صالح، تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب"(٥٠) فلما كان الغد أطلقه المتوكل، وفي اليوم الثالث وثب على المتوكل ثلاثةٌ من قادة العسكر فقتلوه وأقعدوا ولده المنتصر خليفة.

فعلاقتنا بأهل البيت عليهم السلام إنما هي من خلال علاقتهم بالله ورسوله، لأنّهم عبدوا الله حق عبادته، وأطاعوه حق طاعته، وجاهدوا في سبيل الله، ودعوا إليه سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذلك، فإن الولاية لأهل البيت عليهم السلام تعني أن نتبعهم في كل ما قالوه وفعلوه، واتّباعهم هو باتّباع الإسلام الحق الذي بينوه وعرفوه لنا في المفاهيم التي أطلقوها.

وعلينا ونحن نسير معهم ونتّبعهم، أن نستوثق من كل حديث يُنسب إليهم، فلا نقبل كل حديث يرويه من نعرفه ومن لا نعرفه، بل لا بد لنا من أن نعرفه بالمستوى الذي نعرف فيه أنّه الحق.

*** هوامش البحث ***

(١)الإمام الكاظم عليه السلام مسيرة علوية مستمرة، د. حسين ابراهيم الحاج حسن، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ط١٤٢٠،١هـ ـ ٢٠٠٠م: ١٠٦

(٢)معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ٣٥٤

(٣)المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤)المؤمنون: من الآية ٧١

(٥) سورة ص: من الآية ٢٦

(٦) سورة النساء: ١٣٥

(٧)هو أبو محمد هشام بن الحكم مولى بني شيبان ،كوفي ،تحول إلى بغداد من الكوفة وهو من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام من متكلمي الشيعة ممن فتق علم الكلام في الإمامة ،وهذب مذهب أهل البيت عليهم السلام بالنظر والمحاججة ، وكان حاضر الجواب سريع البديهة ، دعا له الإمام الصادق عليه السلام فقال :أقول لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك).استعمل العقل بالدلائل والنظر، ومن خلالها انتقل إلى القول بالإمامة بعد أن كان من أتباع الجهم بن صفوان ،والجهم بن صفوان هذا هو القائل: (لا قدرة للعبد أصلا ،لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هو بمنزلة الجمادات ،والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى إلا الله تبارك وتعالى) .كان هشام بن الحكم منقطعا إلى البرامكة ملازما ليحيى بن خالد البرمكي ،ثم تبع الصادق عليه السلام فانقطع اليه ،وتوفي بعد نكبة البراكمة بفترة يسيرة وقيل : بل في خلافة المأمون .كان هشام يقول : (ما رأيت مثل مخالفينا ،عمدوا إلى من ولاّه الله من سمائه فعزلوه ،والى من عزله من سمائه فولّوه) . انظر ترجمته في: الأعلام، للزركلي: ٩/ ٨٢

(٨) ظ: مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٢

(٩)الزمر: ١٧ ـ ١٨

(١٠)البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤

(١١)النحل: ١٢

(١٢)الزخرف: ١ــ٣

(١٣)الروم: ٢٤

(١٤)الأنعام: ٣٢

(١٥)القصص: ٦٠

(١٦)الصافات : ١٣٦ ـ ١٣٨

(١٧)العنكبوت: ٤٣

(١٨)البقرة: ١٧٠

(١٩)الأنفال : ٢٢

(٢٠)لقمان : ٢٥

(٢١)الأنعام : ١١٦

(٢٢)الأنعام : ٣٧

(٢٣)سبأ : ١٣

(٢٤)ص: ٢٤

(٢٥)هود : ٤٠

(٢٦)البقرة: ٢٦٩

(٢٧)ق: ٣٧

(٢٨)لقمان : ١٢

(٢٩) نص الوصية كاملة في : الكافي للكليني (ت ٣٢٩هـ)، طبعة طهران،١٣٨١هـ: ١/ ١٣ ـ ٢٣

(٣٠) حياة الإمام موسى بن جعفر، دراسة وتحليل، تأليف: باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي: ١/ ١٩١

(٣١) ظ: تأملات في آفاق الإمام الكاظم عليه السلام، السيد محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات،بيروت، لبنان : ٢٧

(٣٢)نص الرسالة كاملا في تحف العقول عن آل الرسول، لأبي محمد الحسن بن علي بن شعبة الحراني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ،دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط١ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م: ٤٩١ ـ ٥١٠

(٣٣) الكهف : ٤٩

(٣٤)الحج : ١٠

(٣٥) يونس : ٤٤

(٣٦)البقرة : ٨٥

(٣٧)تحف العقول عن آل الرسول، للحراني: ٤٩٢ وما بعدها.

(٣٨) أي : الأمراض المزمنة.

(٣٩)الكافي: ١/ ٢٤

(٤٠)نهج البلاغة، دار التعارف، بيروت، لبنان : ٦٣٤

(٤١) ظ: العقل والشريعة، مباحث في الأبستمولوجيا العربية الإسلامية، د. مهدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت،ط١، ١٩٩٥: ١٦

(٤٢)الزمر: ١٧ ـ ١٨

(٤٣)الحيوان، للجاحظ: ٧/ ٥٦

(٤٤)البقرة : ١٦٤

(٤٥) النحل : ١٢

(٤٦) غافر : ٦٧

(٤٧)لسان العرب : (عقل)

(٤٨)بحار الأنوار:٦٧/ ٣٥٧

(٤٩)ظ: مكانة العقل في الفكر العربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي، بيروت، ط٢ ،١٩٩٨: ٦٣

(٥٠)مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٧.

*** مصادر البحث ***

*المصحف الشريف.

*الأعلام، للزركلي، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه، ط٢. القاهرة، ١٩٥٦م.

*الإمام الكاظم عليه السلام مسيرة علوية مستمرة،د. حسين ابراهيم الحاج حسن، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ط١٤٢٠،١هـ ـ ٢٠٠٠م.

*بحار الأنوار، للمجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م.

*تأملات في آفاق الإمام الكاظم عليه السلام ، السيد محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات،بيروت، لبنان.

*تحف العقول عن آل الرسول،لأبي محمد الحسن بن علي بن شعبة الحراني،تحقيق: علي أكبر الغفاري، ،دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

*حياة الإمام موسى بن جعفر، دراسة وتحليل، تأليف: باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي،١٤٣١هـ.

*الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٧هـ ـــ ١٩٦٨م.

*العقل والشريعة، مباحث في الأبستمولوجيا العربية الإسلامية، د. مهدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت،ط١، ١٩٩٥.

*الكافي للكليني (ت ٣٢٩هـ)، طبعة طهران،١٣٨١هـ

*لسان العرب، لابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خياط،دار لسان العرب، بيروت/ ١٩٧٠ .
*معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، المكتبة المرتضوية تإحياء الآثار الجعفرية،١٣٩٢هـ ـــــ ١٩٧٢م.
* مناقب آل أبي طالب، لابن شهراشوب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ ـــــ ١٩٧٦م.
* نهج البلاغة، دار التعارف، بيروت، لبنان.